ابن جنّي

ابو الفتح عثمان

كان أبوه جنّي روميًّا ويقول بعض العلماء إنّ جني معرب من أحد لفظين روميين فإن كان بكسر النون وبدون تشديد فهو معرب لفظ كِنبي وإن كان بكسرها وتشديدها فهو معرب لفظ جنايس . وكان جني مملوكاً لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي الموصلي . وإلى هذا أشار أبو الفتح عثمان بقوله :

فإن أصبح بلا نسب فعلمي في الورى نسبي
على أنّي أؤول الى قروم سادة نُجب
نياصرة اذا نطقوا أرمّ (١) الدهرُ ذو الخُطَب
أولاك دعا النبي لهم كفى شرفاً دعاء نبي

وولد أبو الفتح عثمان بن جني في الموصل موطن والده ومولاه سليمان قبل سنة ٣٣٠ هـ ومات في بغداد ليلة السبت لليلتين بقيتا من صفر سنة ٣٩٢ هـ عن أكثر من اثنتين وستين سنة . وبغداد هي البلد الذي ألِف فيه كشيخه عصا القبّاني واختاره مستقرًّا له .

وكان مولده إبّان انحلال الدولة العباسية في أواخر العصر العباسيّ الأوّل الذي انتهى بأن استولى بنو بويه سنة ٣٣٤ هـ على بغداد وأزالوا سلطان الخلفاء العباسيين المدني إزالة تامّة وصيّروا الخليفة العباسي رئيساً دينيًّا لا أمر له ولا نهي ولم يتركوا له من الأموال إلاّ كاتباً واحداً يدير أملاكه ويضبط دخلها وخرجه وصارت الوزارة لملوك الدولة البويهية يستوزرون من يشاءون ، وتمّ بذلك انفصال بقية الأقطار الإسلامية من الدولة العباسية وصيرورتها دولاً مستقلة استقلالاً تامًّا لا يشوبه اعترافها بسلطان الخلفاء العباسيين الديني أقل شائبة .

وهذه الدول المستقلة من قبل ومن بعد هي الدولة الأموية في الأندلس (١٣٨ — ٤٢٢) والدولة السامانية فيما وراء النهر (٢٦١ — ٣٨٩) والدولة الزيارية في جرجان (٣١٦ — ٤٣٤) والدولة الحمدانية بين النهرين وحلب (٣١٧ — ٣٩٤) والدولة البويهيّة في العراق

(١) أرم : سكت

وفارس وغيرها (٣٢٠ — ٤٤٧) والدولة الغزنوية في أفغانستان والهند (٣٥١ — ٥٨٢) والدولة الفاطمية في شمالي إفريقية ومصر (٣٥٧ — ٥٦٧) .

وكان لهذه الدول بعد زوال سلطان الخلفاء العباسيين المدني عنها أعظم شأن في تقدم العلوم والآداب والفنون بما نبغ من ملوكها وأمرائها ووزرائها فيها وبما كان من حبهم تقريب العلماء والأدباء ورجال الفن وتنافسهم في ذلك ، وبما كان من اقبال الناس على الدرس والبحث والتدريس وتنافسهم هم كذلك في ذلك ، فاجتمع بهذا وذاك للنهضة العقلية أعظم أركانها وهي تضافر الرعاة والرعية وتعاونهم تعاوناً صادقاً .

فكأن الفن والثورات الدينية والسياسية والحربية التي حملت جراثيمها الدولة العباسية منذ نشأتها الأولى وما زالت تتناسل وتتكاثر وتنمي وتقوى وتقتّ في عضد الدولة حتى زعزعت أركانها وقوّضت بنيانها كانت على شدة ضارتها وفداحة ويلاتها وسوء مظاهرها عاملاً قوياً من عوامل النهوض والارتقاء لهؤلاء الدول المستقلة إذ أصبحت كل دولة منها كالدولة العباسية حضارة وعلماً وصبغة عربية إسلامية . فلم يكن تحوّل الدولة العباسية الى هذه الدول قاضياً على خصائصها وميزاتها العامة وهي الحضارة العربية الاسلامية ولغتها وعلومها وآدابها وفنونها ومظاهر حياتها كما كان تحوّل الدولة العثمانية أخيراً مثلاً الى دول لا تمت إليها بصلة قاضياً على خصائصها وميزاتها العامة ووحدتها .

وقد نبغ في هؤلاء الدول أعلام في العلم والأدب والفن عاصروا ابن جني منهم أبو بكر الخوارزمي (المتوفى سنة ٣٨٣ هـ) وأبو اسحاق الصابي (٣٨٤) والصاحب بن عباد (٣٨٥) وبديع الزمان الهمذاني (٣٩٨) وأبو الفضل بن العميد (٣٦٠) وأبو هلال العسكري (٣٩٥) والأزهري صاحب التهذيب (٣٧٠) وابن فارس صاحب المجمل (٣٩٠) وأبو علي القالي صاحب الأمالي (٣٥٦) والجوهري صاحب الصحاح (٣٩٨) وابن النديم صاحب الفهرست (٣٨٥) وابن خالويه (٣٧٠) والأصبهاني صاحب الأغاني (٣٥٦) والسيرافي (٣٦٨) والمتنبي (٣٥٤) وأبو فراس الحمداني (٣٥٧) وكشاجم (٣٦٠) والسري الرفاء (٣٦٢) والشريف الرضي (٤٠٦) والسلامي (٣٩٣) والوأواء الدمشقي (٣٩٠) وغيرهم .

نشأ أبو الفتح عثمان بن جني في هذا الانقلاب السياسي الخطير وفي إبان هذه النهضة العقلية العظمى وبين هؤلاء الأفذاذ المبرزين في العلوم والآداب والفنون وقد رُزق حظاً عظيماً جداً من الذكاء والحذق والبراعة والجدّ في التحصيل والصبر عليه والدقة في البحث والاستقصاء والرغبة الجامحة فكان لذلك كله أعظم تأثير في تكوينه حتى أصبح

إمام عصره في اللغة والأدب والنحو والصرف والرئيس الذي انتهت اليه الرياسة فيها .

وكان أكبر العوامل في تكوينه تأثيراً معرفته شيخه أبا عليّ الحسن ابن احمد الفارسيّ امام الأئمة في علم العربية في عصره الذي لم يكن أحدٌ أعلم بالنحو بعد سيبويه منه . وذلك أن الامام أبا علي الفارسيّ سافر الى الموصل بلد ابن جني ودخل مسجده فوجد ابن جني يقرأ النحو وهو شاب وكان يتكلم في مسألة صرفية وهي قلب الواو ألفا في نحو قام وقال فاعترض عليه أبو علي ووجده مقصّراً فقال له تربيت وأنت جمشريم : والصرف ولم يكن ابن جني يعرفه فسأل عنه فقيل له : إنه أبو علي الفارسيّ النحويّ : فطوى كتبه وأوراقه وشمّر عن ساقيه وجدّ في طلبه حتى أدرك ولازمه ملازمة ظله له وتنقّل معه في أسفاره وانفرد به وأخذ عنه العلم واستملاه ايّاه وصنف في زمانه ووقف أبو علي على تصانيفه واستجادها وأقام معه في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب حيناً وفي بلاط عضد الدولة في فارس حيناً آخر حتى مات أبو علي الفارسي في بغداد سنة ٣٧٧هـ فخلفه أبو الفتح عثمان بن جني فيها وحل محله في التدريس وقد وعى كل علمه وزاده .

ويقول القفطي المصري المتوفي سنة ٦٤٦ هـ في كتابه أنباه الرواة في طبقات اللغويين والنحاة في ترجمة ابن جني : وخدم أبو الفتح عثمان بن جني بيت آل بويه في عهد عضد الدولة وولده صمصام الدولة وولده شرف الدولة وولده بهاء الدولة الذي مات في عهده وكان ملازمهم في دورهم .

ولا شك أن بلاط هؤلاء الأمراء ودورهم منتديات يؤمّها أفذاذ العلماء والادباء ورجال الفن والحرب والسياسة من جميع الممالك والأقطار وتتلاقى فيه أفكارهم ومعارفهم وأن لذلك أكبر الأثر في نضج أبي الفتح وتبريزه .

من ذلك أنه كان يلتقي بأبي الطيب المتنبي في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب وفي بلاط عضد الدولة وولده صمصام الدولة في فارس فتآلفا وتحابا وكانا يتناظران في النحو كثيراً واختلف الرواة فمنهم من يقول انه قرأ ديوانه عليه ومنهم من يقول انه لم يقرأه عليه أنفةً منه واكباراً لنفسه . والصواب أنه قرأه عليه كما يقول ابن خلكان وكما قال هو نفسه في شرحه ديوان المتنبي وإن ابن جني في علمه وحرصه لا يفوته مثل ذلك ولا تأخذه العزة فيقع في مثل هذا التقصير .

قال أبو الفتح كنت قرأت ديوان أبي الطيب عليه فقرأت عليه قوله في كافور القصيدة التي أولها :

أغالبُ فيك الشوقَ والشوقُ أغلبُ وأعجَب من ذا الهجر والوصل أعجب

حتى بلغت الى قوله :

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة ولا أشتكي فيها ولا أتعتّبُ

وبي ما يذودُ الشعر عنّي أقلّه ولكنّ قلبي يا ابنة القوم قُلّبُ

فقلت له يمزح عليّ كيف يكونُ هذا الشعر في ممدوح غير سيف الدولة فقال : حذرناه وأنذرناه فما نفع ألست القائل فيه :

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك ولا تعطينّ الناس ما أنا قائلُ

فهو الذي أعطاني كافور بسوء تدبيره وقلّة تمييزه .

وقال في موضع آخر وهو يردّ على من يعيبون أبا الطيب : على أنني سأذكر ذلك منثوراً في أماكنه بحسب ما يوفق الله جلت عظمته له وأذكر ما شجر بيني وبينه من المباحثة وقت قراءتي ديوانه عليه الى سوى ذلك :

وكان أبو الطيب المتنبي وقد خبر ابن جني أعظم خبرة يقول : إنّ ابن جني رجل لا يعرف قدره كثير من الناس : ويقول : إنّ ابن جني أعلم بشعري مني : وكان اذا سُئِلَ عن مسألة غامضة في شعره أحال السائل على ابن جني من ذلك أنه مدح أبا شجاع مرّة فقال في ولدين له :

فلا ملكا سوى تلك الأعادي ولا ورثا سوى من يقتلان

وكانا ابني عدو كأبيه له يأبى حروف انيسان

فسئل في شيراز عن معنى البيت الأخير فقال : لو كان صديقنا أبو الفتح حاضراً لفسّره وتفسيره أن لفظ انسان خمسة أحرف اذا كان مكبراً فاذا صُغّر صار سبعة أحرف فازداد عدد حروفه وصغر معناه : فهو يقول لأبي شجاع : إن عدوّك الذي له ابنان يكافئك بهما كانا زائدين في عدده ناقصين من فضله وقدره لأنهما ساقطان خسيسان فهما كأبي انيسان تزيدان عدد الحروف وتنقصان من المعنى .

ومنه أنّ سائلاً سأل أبا الطيب عن قوله : باد هواك صبرت أم لم تصبرا : فقال : كيف أثبتّ الألف في تصبرا مع وجود لم الجازمة ؟ وكان من حقه أن تقول : لم تصبرْ : فقال المتنبي : لو كان أبو الفتح هنا لأجابك . والجواب أن هذه الألف بدل نون التوكيد الخفيفة كان في الأصل : لم تصبرنْ : ونون التوكيد الخفيفة تبدل عند الوقف ألفاً قال الأعشى : ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا : وكان في الأصل فاعبُدَنْ فلما وقف أتى بالألف بدل النون .

وقد نبغ ابن جني في علم التصريف نبوغاً منقطع النظير لأن السبب في صحبته أبا عليّ الفارسيّ واغترابه عن وطنه ومفارقته أهله مسألة تعريضية فحمله ذلك على التبحر والتدقيق فيه فقرأ كتاب التصريف لأبي عثمان المازني وهو أول كتاب ألف في هذا العلم وحده وخير كتاب فيه على أستاذه الإمام أبي عليّ الفارسيّ قال أبو الفتح في كتابه سر الصناعة: وهذا ما خرج لي بعد التفتيش والمباحثة مع أبي علي وقتُ قراءتي كتاب أبي عثمان عليه[1] وقال في كتابه الخصائص: قال أبو علي وقتَ القراءة عليه كتابَ أبي عثمان كذا وكذا[2]. ثم شرح هذا الكتاب شرحاً وافياً يدل على غزارة علمه بالتصريف وباللغة وبراعته فيهما وقد سمى هذا الشرح (المنصف) وبقي هذا العلم شغله الشاغل يسأل فيه فيجيب أجوبة شافية ويطرح مسائله على الناس ويبصرهم بأجوبتها السديدة.

ونبغ ابن جني في اللغة نبوغاً تسامى به على المتقدمين والمتأخرين فقد قال منذ ألف سنة بما وصل اليه علماء اللغات حديثاً من أن أسماء الأصوات هي أصول اللغة تشتق منها جميع الأفعال والمصادر والأسماء، وان أسماء الأعيان تشتق منها كما يشتق من أسماء الأصوات. قال في الخصائص:

وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وصهيل الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس وزئير الظبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبّل[3]:

وقال في شرحه تصريف المازني الذي سماه المنصف: ذوات الخمسة وإن لم يكن فيها فعل فان دخول التحقير والتكسير فيها كالعوض من منع الفعلية فيها ألا ترى أنك تقول في تحقير سفرجل وتكسيره سُفَيْرِج وسفارج فجرى هذا مجرى قولك سَفْرَجَ يُسَفْرِجُ سَفْرَجَةً فهو مُسَفْرِجٌ وإن كان هذا لا يقال فانه لو اشتق منه فعل لكانت هذه طريقته[4]:

فالقول الأول صريح كل الصراحة في اشتقاق الأفعال والمصادر وجمع الأسماء من اسماء الأصوات. والقول الثاني يدل على جواز اشتقاق الأفعال وما يتفرع منها من مصادر وأسماء من أسماء الأعيان ويُسَلِّمُ أنها لا تشتق من أسماء الأعيان الخماسية وأنها لو اشتقت منها لكان طريق اشتقاقها كما ذكر أي بحذف الخامس كالتصغير والتكسير.

(١) منقولة عن نسخة من سر الصناعة بالتصوير الشمسي بدار الكتب لغة ٧٣٩ ص ٤٠
(٢) منقولة عن نسخة الخصائص المطبوعة بمطبعة الهلال بالنجالة بمصر سنة ١٩١٣ م ص ٤٤
(٣) الخصائص ج ١ ص ٤٩ س ١ من تحت
(٤) المنصف ص ٣٤ س ١٨ — من نسخة بمكتبة تيمور ٦٥ صرف

فهو بهذا وذاك يقرر منذ الف سنة تقريباً ما وصل اليه علماء اللغات في هذا العصر من أن أصل اللغة حين نشأتها الاولى أسماء أصوات فلما تقدمت وارتقت واستطاعت أن ترتجل اسماء للاعيان أصبحت اسماء الاعيان هذه أصلاً للاشتقاق

وكان لابن جني عناية فائقة بالقياس كاستاذه الامام أبي علي الفارسي فأما عناية ابن جني به فتتجلى في كل مؤلفاته وأما عناية أستاذه به فقد روى عنه قوله : أخطىء في مائة مسألة لغوية ولا أخطىء في واحدة قياسية . وكانا مع ذلك متوسعين في القياس

قال ابن جني في كتابه الخصائص : قال أبو علي وقت القراءة عليه كتاب أبي عثمان : لو سمى شاعر أو ساجع أو متسع أن يبني بإلحاق اللام اسماً وفعلاً وصفة لجاز له ولكان ذلك من كلام العرب وذلك نحو خَرْجَجٍ أكرمُ من دَحْلَلٍ وضَرْبَبَ زيدٌ عمراً ومررت برجل ضَرْبَبٍ وكَرْمَمٍ ونحو ذلك : قلت له : افترتجل اللغة ارتجالاً ؟ قال : ليس بارتجال لكنه مقيس على كلامهم فهو إذاً من كلامهم (١) وقال في الخصائص أيضاً .

ومما يدلك على أن ما قيس من كلام العرب فانه من كلامهم أنك لو مررت على قوم يتلاقون بينهم أبنية التصريف نحو قولهم في مثال (صمحمح) من الضرب (ضَرَبْرَب) ومن القتل (قتلتل) ومن الاكل (أكلكل) ومن الشرب (شربرب) ومن الخروج (خرجرج) ومن الدخول (دخلخل) وفي مثل صفرجل من جعفر (جعفر) ومن صقعب (صَقَعْبَب) ومن زبرج (زبرجج) ومن ترثم (ثرثم) ونحو ذلك فقال لك قائل بأي لغة كان هؤلاء يتكلمون لم تجد بدًّا من أن تقول : بالعربية . وإن كانت العرب لم تنطق بواحد من هذه الحروف (٢)

كان أستاذه إمام الأئمة يستجيد مؤلفاته كما تقدم وهذه شهادة كبيرة له بالفضل وقد شهد له بذلك أعداؤه من ذلك أن أبا اسحاق ابراهيم بن سعيد الرقاعي وهو من أئمة العربية المتازين رأى يوماً بعضهم يتردد على ابن جني في وأسط ويتلقى عنه العلم فقال له : قد انكفت على هذا المجنون (يريد ابن جني) : فقال له : إنه يحكى عن أبي علي النحو كما أنزل قال : صدقت . (٣) وقد كان أبو اسحاق هذا محفوظاً معقوراً لتشيعه .

أما شهادات المنصفين فكثيرة منها ما ورد في كتاب : نزهة الالبا في طبقات الادبا لابن الانباري .

---

(١) ٣٦٣ خصائص (٢) ٣٦٥ خصائص

(٣) ص ٥٠٦ القسم الخامس من أنباه الرواة المقتطى من نسخه بالتصوير الشمسي بدار الكتب تحت عنوان تاريخ ٢٥٧٩

أمّا أبو الفتح عثمان بن جني النحوي فإنه كان من حُذاق أهل الأدب وأعلمهم بعلم النحو والتصريف : وقال : ولم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف فإنه لم يصنف أحدٌ في التصريف ولا تكلم فيه أحسن ولا أدق كلاماً منه .

وما ورد في معجم الأدباء لياقوت قال فيه .

من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف وصنّف في ذلك كتباً أبرّ بها على المتقدمين وأعجز المتأخرين ولم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف ولم يتكلم أحدٌ في التصريف أدقّ كلاماً منه :

وما ورد في دُمْية القصر وعُصرة أهل العصر : لأبي الحسن الباخرزي قال :

هو أبو الفتح عثمان بن جني ليس لأحد من أئمة الأدب في فتح المقفلات وشرح المشكلات مثله ولا سيما في علم الاعراب فقد وقع عليها من تمرق الغراب [1] ومن تأمل مصنفاته وقف على بعض صفاته .

وأعظم من أولئك جميعاً أنه لطول كبه في اللغة والأدب أصبح ثقة وحجّة فيهما وأكثر أئمتها في النقل عنه والاحتجاج بأقواله وقد أوتي من ذلك حظّاً عظيماً لا يقل عن حظ أكبر الأئمة كالخليل وسيبويه وغيرهما فالرواية عنه والاحتجاج بأقواله كالرواية عن هؤلاء الأئمة والاحتجاج بأقوالهم .

وكأن أبا الفتح كان بما أوتي من مواهب وملكات وما كان من أستاذه الإمام أبي علي الفارسي من غناء قد اقتصر عليه وعلى جهوده فلم يذكر له من الشيوخ غيره . أمّا الذين أخذوا عنه فكثيرون منهم أبو القاسم الهاشمي وأبو احمد عبد السلام بن الحسين البصري وأبو الحسن علي بن عبدالله وأولاد ابن جني نفسه الثلاثة عليّ وعالم والعلاء وقد تفقهم أحسن تثقيف وعلمهم الخط الحسن فصاروا أدباء فضلاء معدودين فيمن ضبطه وحسن خطه

ويقول بعض المؤلفين أن ابن جني لازم شيخه أبا علي الفارسي أربعين سنة . وهذا غير معقول لأن ابن جني لم يعش إلا اثنتين وستين سنة قضى منها قبل ملازمة شيخه نحو عشرين سنة على الأقل لأنّ الروايات متضافرة على أنه لازمه بعد أن تصدر للتدريس في

(١) تمرة الغراب . يضرب المثل بالغراب في أشياء كثيرة فيقولون أبعر من غراب : وأحذر من غراب : و أمشى عيشاً من غراب : وغير ذلك مما يقولونه : وحد تمرة الغراب : وذلك إذا تتبع أجود التمر واختار أجوده يضرب مثلا لمن يختار أجود الشيء .

جامع الموصل ولا يمكن أن يتصدَّر للتدريس في مسجد جامع قبل سن العشرين ثم لم يعش بعد شيخه إلا نحو عشرة سنة فإنَّ الشيخ مات سنة ٣٧٧ هـ والتلميذ مات سنة ٣٩٢ هـ فيكون قضى من عمره كله نحو خمس وثلاثين سنة قبل معرفته شيخه وبعد افتراقهما بوفاة هذا الشيخ بدون ملازمة له والباقي من عمره بعد طرح خمس وثلاثين سنة وهو خمس وعشرون سنة هو الذي يمكن أن يقال إنه لازمه فيه.

وأي شيخ لا ينفد ما عنده في أقل من نصف هذه المدة وأي طالب يبقى في حاجة الى ملازمة شيخه أكثر من نصف هذه المدة يخيل إليَّ أن حاجة أخرى هي التي أطالت هذه الملازمة حتى بلغت ما بلغت هي حاجة الأستاذ الى خدمة تلميذه ليستعين بهذه الخدمة على تأدية رسالته وحاجة التلميذ الى العيش الرغيد الذي كان شيخه يتمتع به في بلاط هؤلاء الأمراء

ولابن جني مع بعض الأعراب نوادر طريفة تدل على حذقه وعلمه وعلى بقاء السليقة العربية سليمة الى عهده بعض السلامة وقد روى كثيراً منها في كتبه وأذكر منها مسألتين مما ذكره في الخصائص على سبيل التمثيل قال:

سألت مرَّةً أبا عبد الله محمد بن العبَّاف المُقَيْلي الجُوثي التميمي الهجري وصحبه ابن عم له دونه فصاحة وكان اسمه غُصْناً فقلت لهما: كيف تحقِّران حمراء فقالا: حميراء: قلت. فسوداء: قالا: سويداء: ووالَيت من ذلك أحرفاً وهما يجيبان بالصواب ثم دسست في ذلك علباء: فقال غُصْنٌ: علبياء: وتبعه الهجري فلذا هم بفتح الباء تراجع كالمذعور ثم قال: آه عليي[1] ووام الضمة في الياء فكانت تلك عادة له[2] وقال:

سألت هذا الاعرابي مرَّةً: كيف تجمع مرجاناً: فقال: مراجين: قلت: فدكاناً: قال: دكاكين: قلت وقرطاناً[3]: قال: قراطين: قلت: فعثمان: قال: عثامين: قلت. هلاَّ قلت عثامين كما قلت: مراجين وقراطين: فأباها البتة وقال: إيش ذا أرأيت انساناً يتكلم بما ليس من لغته والله لا أقولها أبداً: استوحش من تكسير العلم إكثاراً له لا سيما وفيه الألف والنون الثنائي باجماع فعلان الذي لا يجوز فيه فعالين نحو سكران وغضبان.

(١) العلباء عصب في عنق البعير يلزم به مقبض السيف العلابة وجمعه علاب ويقصر على علب بكسر ما بعد باء التصغير وهو الباء لانه أكثر من ثلاثة أحرف وليست الهمزة كالف حمراء وإنما هي للالحاق واذا كسرت الباء لم يبق حاجة الى الالف الزائدة لما تتمتها فتحذف وتقلب الهمزة واصلها الف ثم ورة ياء لمناسبة الكسرة قبلها فتصير عليبي وبعد قلب الهمزة ياء تخفف بحذفها فتجتمع ياء وتنوين وكلاهما ساكن فتحذف الياء للاعلال كياء قاضٍ فتصير عليب

(٢) الخصائص ص ٤٢٥ (٣) القرطان: النوب البسير والقماحة

ومما يروى من أخباره مع غير الاعراب أنه كان يوماً في زيزب [١] مع الرضي والمرتضى العلويين وكان علي بن عيسى الربعي يمشي حينئذ على شاطىء النهر فلما رآهم قال للعلويين : من أعجب أحوال الشريفين أن يكون عثمان جالساً معهما في الزيزب وعلي يمشي على الشط بعيداً منهما : وعلي هذا من أئمة النحو الممتازين بجودة الفهم والنظر واقتياس أخذ عن السيرافي ولازم الفارسي شيخ ابن جني عشر سنين حتى قال له شيخه : ما بقي شيء تحتاج اليه ولو سرت من المشرق الى المغرب لم تجد أعرف منك بالنحو : غير أنه كان مبتلى بشيء من الجنون ولك حوادث غريبة فليس بكثير أن يقول للشريفين مثل هذا المقال في ابن جني

ومنها أنه زار يوماً أبا اسحاق الصابي في ديوان الانشاء وكان بين يديه كاتب من المعروفين بالنحو واللغة والأدب في أيام عضد الدولة وابنه صمصام الدولة اسمه أبو الحسين اسماعيل بن محمد التميمي وأخذ ابن جني يتحدث مع ابي اسحاق تارة ومع حفيده — وكان حاضراً إذا اشتغل أبو اسحاق — تارة أخرى وكانت لابن جني عادة في حديثه أن يميل بشفته السفلى ويشير بيده فبقي أبو الحسين التميمي شاخصاً ببصره يتعجب منه فقال له ابن جني : ما بك يا أبا الحسين تحدق اليّ النظر وتكثر مني التعجب ! : قال شيء ظريف : قال : ما هو ؟ : قال : شبهتُ مولاي الشيخ وهو يتحدث ويقول بيوزه [٢] كذا وبيده كذا بقرد رأيته اليوم عند صعودي الى دار المملكة وهو على شاطىء دجلة يفعل مثل ما يفعل مولاي الشيخ : فامتعض أبو الفتح وقال : ما هذا القول يا أبا الحسين — أعزك الله — ومتى رأيتني أبرحُ فتمزحَ معي أو أجنُ فتمجنَ بي ! : فلما رآه أبو الحسين قد حرد [٣] واستغاظ [٣] وغضب قال : المعذرة أيها الشيخ اليك والى الله تعالى عن أن اشبهك بالقرد وإنما شبهتُ القرد بك : فضحك أبو الفتح وقال : ما أحسن ما اعتذرت ! : وعلم أبو الفتح أنها نادرة تقع فكان يتحدث بها هو دائماً . إن صحت هذه القصة دلت على أن أبا الحسين هذا كان من الجان المستهترين وقد ذكرتها لما فيها من بيان عادة لابن جني .

وقيل ان ابن جني كان متهماً بإحدى عينيه فلذلك قال في صديق له :

حسودُك عني ولا ذنب لي دليل على نيتـه فاسده
فقد وجباتك مما بكيتُ خفيت على عيني الواحده
ولولا مخافةُ ألاّ أراك لما كان في تركها فائده

وقيل إنه لم يكن متهماً بإحدى عينيه وإن هذه الأبيات ليست له إنما هي لأبي منصور الديلمي

(١) الزيزب ضرب من السفن (٢) البوز ثم المذر (٣) حرد غضب وتأفف (٣) استغاظ اشتد غضبه

وكان ابن جني مع غزارة علمه ومهارته فيه شاعراً جيّد الشعر ناثراً جيّد النثر. فمن جيد شعره قوله:

غزالٌ غيرُ وحشيّ حكى الوحشيَّ مقلتُه
رآه الوردُ يجني الورْ دَ فاستكساه حُلّتُه
وشمّ بأنفه الريحا نَ فاستهداه زهرتَه
وذاقت ريحه الصهبا[1] فاختلسته[2] نكهتُه[3]

ومنه مرثيته للمتنبي ومنها.

فاض القريض وأذوت نضرة الأدب وصوحت[4] بعد ري دوحة الأدب
عليتَ ثوب بهاء كنت تلبسه كما تخطّفُ بالخطّية السَّلَبُ
ما زلت تصعب في الجلى اذا انصعبت قلباً جميماً[5] وهو ماغير منصعب[6]

ومنه

ومنه تحبَّبْ أو تذرّع أو تأبّ فلا والله لا أزداد حبّا
أخذت ببعض حبك كل قلبي فان رمت المزيد فهات قلبا

ومن جيد نثره خطبة نكاح طويلة منها:

الحمد لله فاطر السماء والأرض، ومالك الابرام والنقض، ذي العزة والعلاء، والعظمة والكبرياء، مبتدع الخلق على غير مثال، والمعبود بحقيقته في كل حال، الذي ملأت حكمته القلوب نوراً، فاستودع علمَ الاحياء كتاباً مسطوراً: وكل الخطبة على هذا النسق وأمثال هذا الاسلوب البليغ كثيرة جداً في مصنفاته العديدة.

ولابن جني مصنفات كثيرة كلها جيد بالغ الحدّ في الجودة. وقد ذكر هو بعضها في إجازة بروايتها فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم: قد أجزت للشيخ أبي عبدالله الحسين بن أحمد بن نصر — أدام الله عزه — أن يروي عنّي مصنفاتي وكتبي مما صححه وضبطه عليه أبو أحمد عبد السلام ابن الحسين البصري — أيّد الله عزه — عنه منها:

١ — كتابي الموسوم بالخصائص وهو ١٠٠٠ ورقة (وقد طبع الجزء الأول منه في مطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة (١٣٣١ هـ) وسنة (١٩١٣ م). قال الإمام السيوطي في خطبة كتابه (الاقتراح في علم أصول النحو) ما يأتي:

واعلم أني استمددت في هذا الكتاب كثيراً من كتاب الخصائص لابن جني فانه وضعه

(١) الصهباء اسم من أسماء الخمر (٢) اختلست اختطفته (٣) نكهته رائحته وهي بدل من ضمير اختلسته (٤) صوحت يبست جفافها (٥) قلباً جميعاً غير متفرق لزوماً (٦) غير منتصب غير منتدح لوعي

في هذا المعنى وسماه « أصول النحو » لكن أكثره خارج عن هذا المعنى وليس مرتباً وفيه اللغة والنحو والاستطرادات فلخصت منه جميع ما يتعلق بهذا المعنى بأوجز عبارة وأرشقها وأوضحها معزواً اليه : ص ٢ الاقتراح .

٢ — كتاب التمام في تفسير أشعار هذيل مما أغفله أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري رحمه الله وهو ٥٠٠ ورقة ذكره في ص ١٥٦ من الخصائص .

٣ — كتابي سر الصناعة وهو ٦٠٠ ورقة (في دار الكتب منه نسخ منها نسخة برقم ١٦ ش لغة ونسخة برقم ١٢٠ لغة) .

٤ — كتابي في تفسير تصريف أبي عثمان بكر بن محمد بن بقية المازني وهو ٥٠٠ ورقة (منه نسخة بمكتبة الشنقيطي ٢ ش صرف وأخرى في مكتبة تيمور) .

٥ — كتابي في شرح مستغلق أبيات الحماسة واستغلاق أسماء شعرائها وهو ٥٠٠ ورقة (ولعله التنبيه في شرح مشكلات أبيات الحماسة وهو في دار الكتب رقم ٤٤ أدب والتنبيه في إعراب الحماسة

٦ — كتابي في شرح المقصور والممدود ليعقوب بن إسحاق السكيت وهو ٤٠٠ ورقة

٧ — كتابي تعاقب العربية وأطرق به وهو ٢٠٠ ورقة

٨ — » تفسير ديوان المتنبي الكبير وهو ١٠٠٠ ورقة ونيف .

٩ — » تفسير معاني هذا الديوان وهو ١٥٠ ورقة .

١٠ — » اللمع في العربية .

١١ — » مختصر التصريف على اجتماعه (وهو بدار الكتب برقمي ١٨١ و ٢٢٠ صرف ولعله التصريف الملوكي المطبوع بمطبعة شركة التمدن بمصر

١٢ — » مختصر القوافي .

١٣ — كتاب الألفاظ المهموزة

١٤ — كتابي في اسم المفعول المعتل العين من اللائي على إغرابه في معناه وهو المقتضب من كلام العرب . (وقد طبع في ليبزج سنة ١٩٠٤ وهو في دار الكتب برقم ٢٢٦ صرف)

١٥ — وما بدأت بعمله من كتاب تفسير المذكر والمؤنث ليعقوب أيضاً أعان الله على إتمامه

١٦ — وكتاب ما خرج مني من تأييد التذكرة من القبيح أبي علي — أدام الله ستره

١٧ — كتاب في الخواص في العربية وإذكان ما جرى أزال يبدي عنه حتى شذ مني وهو ٦٠٠ ورقة .

١٨ — كتاب النوادر المشتمة في العربية زهاء ١٠٠٠ ورقة وقد سلف أيضاً عني ذكر وقعا كلاما أو شيء منهما غير لاحق بما أجوت روايته هنا

١٩ — وكتاب ما أحضرنيه الخاطر من المسائل المنثورة مما أملاته أو حصل في آخر تعاليقي عن نفسي وغير ذلك مما هذه ماله وصورته .

فليرو — أدام الله عزه — ذلك عني أجمع إذا أصبح عنده وآنس بتلقينه وتسديده وما صح عنده — أيده الله — وقرأته عليهم بالعراق والموصل والشام وغير هذه البلاد التي أتيتها وأقمت بها مباركاً له فيه منفوعاً به بإذن الله .

وله غير ما ورد في هذه الإجازة من الكتب ما يأتي :

٢٠ — المحتسب في تعليل شواذ القراءات (وهو كتاب منظم جيد جداً في دار الكتب منه نسخه برقم ٧٨ قراءات)

٢١ — شرح ديوان المتنبي الصغير (ومنه نسخة في دار الكتب برقم ٢٣ أدب) .

٢٢ — مفردات القراء السبعة (في دار الكتب بعنوان ١٠ م قراءات)

٢٣ — المبهج في تفسير حماسة الخالدين (في دار الكتب برقم ٧٢١٠ و ٧٣٢١ أدب .

٢٤ — المغرب في تفسير قوافي أبي الحسن (ذكره في الخصائص ص ٨٦)

٢٥ — كتاب في الزجر ذكر فيه كثيراً من الأفعال المشتقة من أسماء الأصوات التي يصوت بها للبهائم — ذكره في صفحتي ٤٣٨ و٤٣٩ من الخصائص المطبوعة .

٢٦ — الفرق — ٢٧ المعاني المحررة — ٢٨ — الفائق — ٢٩ مختار الأراجيز — ٣٠ — شرح الفصيح — ٣١ العافي في القوافي — ٣٢ — المهذب — ٣٣ — التبصرة — ٣٤ — علل التثنية — ٣٥ التلقين في النحو — ٣٦ — المفيد في النحو — ٣٧ — المسائل الخاطريات — ٣٨ — المسائل الواحدية التي أملاها في واسط — ٣٩ — التذكرة الأصبهانية — ٤٠ — تفسير أرجوزة أبي نواس — ٤١ — تفسير العلويات وهي أربع قصائد للشريف الرضي — ٤٢ — رسالة في مدد الأصوات ومقاديرها — ٤٣ — النقض على ابن وكيع في شرح المتنبي وتخطئته — ٤٤ — الوقف والابتداء — ٤٥ — الفصل بين الكلام الخاص والكلام العام — ٤٦ — التصريف الملوكي المطبوع بمطبعة شركة التمدن الصناعية بالفريبة بمصر حوالي سنة ١٩١٣ فيما أظن ولعله السابق ذكره بعنوان (مختصر التصريف على اجماعه)

عبد الله أمين